المصطلح اللّغوي في التّراث العربي –جهود الجاحظ في تشكيل المصطلح اللّغوي–

Linguistic term in Arab heritage

-Experienced efforts in shaping the linguistic term-

نجيبة مهديد[1]*

جامعة حسيبة بن بوعلي – الشلف (الجزائر) البريد الالكتروني:mahdidnadjiba@gmail.com

تاريخ الاستلام: 2022/08/24 تاريخ القبول: 2022/09/17 تاريخ النشر: 2022/12/27

ملخص:

يتأكّد لنا بأن المصطلحات مهما كان يحتل موقعاً متميّزاً في الساحة الفكرية والأدبية، وأنها تمثل الأداة الفعالة في نموّ العلوم وتطوّرها، ولا تفهم العلوم المتباينة فهماً دقيقاً بدون الفهم الصحيح لهذه المصطلحات، ومن العوامل المساهمة في صياغة المصطلح: الاشتقاق والقياس والترجمة.

وفي ظل هذا التوجّه، يبقى المصطلح، مهما كان دالا على قيمة خاصة، إذ بوجوده يتم التعبير «الروح العامة، ونظام الأفكار وقواعد القانون السائدة في المجتمع».

وهي في رأينا الروح الاجتماعية التي تشكّل هويته، وترتبط بهذا الوجود الاجتماعي الذي بواسطته تبني الأفكار وتتأسس الضوابط والقوانين التي تضمن سلامة السير للمجتمع وفق إطار مصطلحي محدد مفهومه سلفاً.

كلمات مفتاحية: المصطلح؛ اللغوي؛ التراث العربي؛ جهود؛ الجاحظ.

Abstract:

e are assured that terminology, however distinct it may be in the intellectual and literary arena, is an effective tool in the growth and development of science, and disparate sciences are not accurately understood without the correct understanding of these terms, and

* **المؤلف المرسل: نجيبة مهديد.**

contributing factors to the formulation of the term: derivation, measurement and translation.

Under this orientation, the term remains, however valuable it may be, as "the public spirit, the system of ideas and the rules of law prevailing in society" is expressed.

In our view, it is the social spirit that shapes its identity, and it is linked to this social existence by which ideas are embraced and regulations and laws are established that ensure the safety of the society's functioning according to a predetermined framework of terms

Keywords: The term; linguistic; Arab heritage; Efforts; The vicious.

إنّ هذا المصطلح يمثّل اللفظ الذي يحمل دلالة لغوية معيّنة، نشأت عن طريق الاتّفاق والمواضعة بين أفراد المجتمع لينتقل من هذه الدلالة المشاع تداولها في المجتمع إلى دلالة خاصة ترتبط بحقل من الحقول المعرفيّة، كالحقل الأدبي مثلاً، فهو بهذا التصوّر رمز لغوي لمفهوم معين؛ أي أنّ معناه عليه هذا مصطلح «وتعتمد درجة وضوح معناه على دقة موضع لمفهوم ضمن نظام المفاهيم ذات العلاقة»(http :www.awu.dam.atgle)

هذا النّص يصوّر لنا حقيقة المنشغلين بالمصطلح عندما يختارون لفظاً دالاً يطلق على مفهوم محدد عن طريق المواضعة التي توثق الصلة بين الدال ومدلوله*، ومن العجيب أن المصطلح الحديث يعدّ استمراراً للمصطلح عند القدامى مع حصول تغيرات قد تخرجه من سياقاته.

والمصطلح: وعلاقته وثيقة بتحديد المعاني وتخصيص مجالاتها بشكل واسع، ويتبيّن لنا أنّه ينتقل من الوظيفة التّعليمية البحتة إلى الوظيفة الجماليّة.

أ– العوامل المساهمة في صياغة المصطلح:

من الوسائل المساهمة في صياغة المصطلح:

* الدال برصفه رمزاً لغوياً، والمدلول الذي يحمل المفهوم.

1- **الاشتقاق**: يعدّ هذا العنصر من أهم وسائل النّمو اللّغوي، والتعبير عن الدّلالات الجديدة ومكتشفات العلم واختراعاته وتطور وسائل الحياة والحضارة (النادري، دت، صفحة 257)، وهو في جوهره:«توليد لبعض الألفاظ من بعض والرجوع بها إلى أصل واحد يجدّد مادتها، ويوحي بمعناها المشترك الأصيل مثلما هو بمعناها الخاص الجديد» (الصالح، 1960، صفحة 174)، وهو أنواع[2] وأهمها: الاشتقاق الصغير والأصغر وهو أكثرها استعمالاً.

وقد عرفه السيوطي: هو «أخذ صيغة من أخرى، مع اتفاقهما معنىً ومادة أصلية وهيئة، كضارب من ضرب» (السيوطي، 1987، صفحة 346).

وورد تعريفه في المعجم الوسيط «بمعنى توليد كلمة من كلمة أخرى شرط خضوعها لقوانين الصرف نحو «شق الأمر:صعب، وعلى فلان: أوقعه في المشقّة، وشقّ البيت، بدا وظهر، والكلام: وسعه وبيّنه ولّد بعضه من بعض» (إبراهيم، دت، صفحة 489).

2- **القياس**: وبالعودة إلى المعاجم اللغوية للبحث عن الدلالة المعجميّة، نجد لفظ (القياس) مأخوذ من (قاس) أو (ق ي س)، و«قاس الشيء يقيسه قيساً واقتاسهُ وقيسه، إذا قدره على مثاله» (ابن منظور، 1993، صفحة 370).والزمخشري في الأساس، ذكر «القيس قاسه به وعليه وإليه قيساً، واقتاسه وهو مقيس عليه...فالقياس يحمل دلالة التقدير، كأخذ الشيء بالشيء قياساً(...وقدر غورها به)» (الزمخشري، 1998، صفحة 530).

وعليه فالقياس يثري اللغة العربية ويجعل ألفاظها تتماشى والتغير الحاصل في شتى الميادين وما يستدعيه كل تغير من استحداث لمصطلحات اللغة، والباحثون عند لجوئهم إلى القياس يستخرجون مجهولاً من معلوم، وهو اللبنة الأساسية في التعامل مع كلام العرب، وقول النحويين «أنّ كلّ ما قيس على كلام العرب فهو من كلام العرب» (ابن جني، 2016، صفحة 153).

3- **الترجمة**: هي التي اعتمدها الدارسون العرب في تشكيل مصطلحاتهم، وتتمثل في ترجمة الموروث العربي، وأمّا حدهما اللغوي، فقد جاء في لسان العرب أنّ «التَّرجمان والتُّرجمان= المفسّر، وقد ترجمه

[2]-الاشتقاق: الصغير أو الأصغر والكبير والقلب الأكبر أو الإبدال والكبار أو النّحت.

وترجم(...)» (ابن منظور، 1993، ترج، ترجهم). قال ابن جني: «أمّا ترجمانُ فقد حكيت فيه تُرجُمان، بضم أوله، ومثاله كعترفان ودُجسمان، ويقال: قد ترجم كلامه: إذا فسّره بلسان آخر، ومنه التّرجمان والجمع التراجم»(ابن منظور، 1993، ترج، ترجهم).

وعليه فمصطلح الترجمة يأخذ دلالة التفسير والإيضاح، فهي إذن تفسير لغوي من لسان الأصل إلى لسان الهدف، واختلف الباحثون حول دلالتها، أهي عملية نقل أم عملية تفسيرية أم عملية تأويلية تعبيرية؟

وهكذا أصبحت ذات دور هام وفعّال بوصفها النّافذة التي تطُلُّ من خلالها على ما أنتجه الآخرون في الحقول المعرفيّة المختلفة.

والترجمة في نظر الجاحظ«لن يتمكن من نقل المصطلحات من بيئتها الأصلية إلى الجديدة ومن لغتها الأولى إلى لغتها الثانية إلاّ كان هذا المترجم صاحب بيان، عالماً بأسرار اللغة المنقولة عنها واللغة المنقولة إليها، مع كونه ذا درية وممارسة لهذه العملية...» (الجاحظ، 1969، صفحة 78).

وبناء عليه يتأكد لنا أنّ المصطلحات تكتسب دلالتها من البيئة الاجتماعيّة، بعد تواضع أفراد البيئة عليها، فهيَ –ولا شك– لا تقل أهمية عن العاملين السابقين، فهي «همزة وصل بين متكلمي اللغات المختلفة ووسيلة لنقل العلوم والمعارف منذ القدم» (طاهر مسعودي، قراءة جديدة للمصطلح في التراث النقدي العربي، 2008، صفحة 112).

والنّص بيّن بوضوح أهمية الترجمة القائم على الوصل والنقل، ويترتب على هذه المهمة أمران هما: المعرب والدخيل، فما دلالة كل من العنصرين: المعرب والدّخيل في الحقل اللساني العربي؟

1- فأمّا المعرب فنبع من الجذر (ع رب) التي وردت مشحونة بدلالات عديدة، فصاحب لسان العرب يورد «الإعراب والتعريب معناهما واحد، وهو: الإبانة، يقال: أعرب عن لسانه وعرب أي أبان وأفصح» (ابن منظور، 1993، الصفحات 115-144).

وأمّا أصحاب المعجم الوسيط فحاولوا تناول دلالات مصطلح المعرب في نطاقه الواسع وبشكل دقيق، ورد في الوسيط (عَرُبَ) عروباً وعروبية: فصح(..) أعرب فلان: كان فصيحاً في العربيّة وإن لم يكن

من العرب، والكلام بيّنه وأتى وفق قواعد النحو(...) والاسم الأعجمي نطق على منهاج العرب (إبراهيم، دت، صفحة 591) (...) «وعرّب: أفْصَحَ-والكلام أوضحه-وفلاناً علّمه العربية. (والتعريب): صبغ الكلمة بصبغة عربيّة عند نقلها بلفظها الأجنبي إلى اللغة العربية» (إبراهيم، دت، صفحة 275).

وهكذا ارتبطت تعاريف المعجم الوسيط بما استجد في العصر الحديث، إذ لم يقتصر تعريفه على البيان والإفصاح. وعليه فاللغة- هاهنا- تُعدّ الأساس الذي تبنى عليه المصطلحات ويتم تحديد ألفاظها ومعانيها ومدى الحاجة إليها.

2- **الدّخيل**: اسم مشتق من الجذر اللغوي (د خ ل) وقد ورد تعريفه في لسان العرب أنّه من «الدخول: نقيض الخروج، دخل يدخل دخولاً وتدخّل ودخل به وكلمة دخيل: أدخلت في كلام العرب وليست منه» (ابن منظور، 1993، صفحة 308).

وعليه فقد حمل مصطلح الدخيل في لسان العرب دلالة الدخُول، وهو ما جاء به الزمخشري، والدّلالة نفسها عند أصحاب المعجم الوسيط بقولهم:«الدخيل من دخل في قوم وانتسب إليهم وليس منهم..وكلّ كلمة أدخلت في كلام العرب وليست منه» (ابن منظور، 1993، صفحة 308).

إن المعاجم السالف ذكرها تلتقي في تعاريف للمدخل المعجمي الدخيل عند: الدخول والانتساب.

واصطلاحاً: وجدنا الدخيل يعبر على كل كلمة أعجمية أدخلت في كلام العرب ونطق بها على سمت العربية حتى صارت بعد تعريب حروفها عربية الحال ولو كانت أعجمية في الأصل (دراقي، دت، صفحة 126).

من خلال ما تقدم يتبيّن أن الدّخيل لفظٌ أعجميٌّ تمّ وضعه في اللغة العربية لتنقل من طبيعته الأعجميّة الأصلية إلى إطار عربيّ عن طريق التعريب بمحاولة إخضاعها لقواعد اللغة العربية. لا غلوّ إذا أكدنا أنّ اللغة العربية في الحقيقة لغة اشتقاقية واصطلاحية، وهذا يؤكد كذلك القدرة لأصحابها لأنْ يولدوا ما يرغبون فيه من مصطلحات وألفاظ وفقاً لأنظمتها القائمة عليها العلوم المختلفة، والعلم لا تنضبط حدوده ومعالمه إلا بلغته الاصطلاحيّة. وقد اتفق الدارسون العرب على أنّ المصطلح يتمّ توليده بواسطة عوامل سبق ذكرها وهي: الاشتقاق فالقياس، ثم الترجمة والتعريب كذلك، وهي عناصر تشكل

قاعدة لتطور اللغة وثباتها وتفرغها لمختلف العلوم والفنون، ولمواكبة عصور العلم والتقانة، وهذه العناصر السالف ذكرها تمكنها – لا محالة– من أدوات استيعاب العلوم العصرية وإيجاد المصطلحات المقبولة والموازية للمصطلحات العربية التي غزت العربية في عقر دارها.

ولولا هذه العوامل المساهمة في صياغة المصطلح لأصبح العالم العربي اليوم تابعا للغرب ومكرساً مصطلحاته في شتى العلوم والفنون.

الجاحظ اللساني:

إنّ اسم الجاحظ عند عامة الناس وخاصّتهم أشهر من أن يحتاج إلى تقديم، لقد استوعب جميع ثقافات عصره وصهرها في ثقافته العربية الأصيلة دون المساس بوحدتها، لقد كان عالماً ومفكّراً وناقداً ولسانياً وبلاغيًّا وأديب عصره، وجانبه اللساني يكاد يكون من الجوانب المهملة في تراث الجاحظ، فقد كان يدرك إدراكاً عجيباً أصول هذا العلم، فقد شخّص مفهوم الحرف والوظيفة الحرفية، وقد توصّل إليهما عن طريق التحليل الوظيفي للحروف، وقد قدم نماذج في كتابه "البيان والتبيين"* لا تختلف عن التّحاليل المستعملة اليوم في الدراسات اللسانية الحديثة.

وقد تجلّت عبقريته اللسانية في كونه يقوم بتجارب ميدانيّة مجمعاً فيها رسائل عدة مكتوبة، ويستمع لخطب عدّة ملفوظة، فيعدد جميع حروفها، ويلاحظ ترداد كل حرف ليستخلص وظيفته ومردوده في اللغة (بناني، 1989، صفحة 5)، ولم يكتف بهذا بل راحَ يقارن بين الحروف العربيّة وبعض الحروف الأجنبيّة ليستنتج أنّ لِكُلّ لغة حروفاً تدور في أكثر كلامها كاستعمال الروم للسين واستعمال الجرامقة للعين (بناني، 1989، صفحة 8). ويشاهد تداخل اللغات ويلاحظ كثرة ذلك على السواحل والحدود (بناني، 1989، صفحة 9).

وهو حين يدرك «أنّ اللغة نظام متكامل ومستوٍ ومطّردٍ يكتشف علاقتها بالحياة اليومية ودورها في تكوين فكرة القومية وحتّى في تقوية العصبيّة المهنيّة» (بناني، 1989، صفحة 9).

القصد من البيان والتّبيين:

* أشهر كتبه، بالإضافة إلى: البخلاء، ومجموع رسائله.

يعدّ كتاب البيان والتبيين من الكتب الموسوعيّة التي تناولت الفنون القولية المختلفة كالبلاغة وغيرها، مع ذكره لصفوة الأشعار والحِكم والخُطب الصادرة عن الخطباء، وكذا الذكر الحكيم والأحاديث النبوية الشريفة بوصفها المنبع الأساس الذي انطلق منه معظم مفكري الإسلام.

إنّ القصد من تأليف هذا الكتاب هو الدفاع عن قيم العرب، ولا سيما ما اشتهروا به من بيان وبلاغة، مثبّتاً أصالتهما عندهم، وأنّهما نتاج طبع وسليقة تجلى في الخطابة والشعر (طاهر مسعودي، قراءة جديدة للمصطلح في التراث النقدي العربي، 2008، صفحة 189).

مضمون البيان والتّبيين:

وضع الجاحظ عنوان كتابه، متفطّناً ما للفنون من أهميّة في تشكل أي نص، فعنوانه رسالة يبعث بها المرسل (المبدع) إلى المتلقي، وهو في مقصده أمام دالين: (البيان والتبيين)، وهما يمثلان العلاقة القائمة بين المرسل (المبيّن) وبين العمل الأدبي (البيان)، وإظهار دلالتهما، وهذا العنوان مأخوذ من القرآن الكريم، ومعرَّفا (طاهر مسعودي، قراءة جديدة للمصطلح في التراث النقدي العربي، 2008، صفحة 192) البيان بقوله «البيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى وهتك الحجاب دون الضمير حتى يفضي السّامع إلى حقيقته ويهجم على محصوله كائناً ما كان ذلك البيان من أي جنس كان الدليل، لأنّ مدار الأمر والغاية التي يجري القائل والسامع إنّما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع» (طاهر مسعودي، قراءة جديدة للمصطلح في التراث النقدي العربي، 2008، صفحة 192).

فأمّا (التبيين) فقد أعطاه دلالة الوضوح والإفصاح، حيث قال: «كلما كانت الدلالة أوضح وأفصح، وكانت الإشارة أبين وأنور،كان أنفع وأنجع» (الجاحظ، البيان والتبيين، دت، صفحة 55).

كما أعطى له دلالة حسن التفصيل، ويتجلى ذلك في قوله «أبين الكلام كلام الله وهو الذي يمدح التبيين وأهل التفصيل» (الجاحظ، البيان والتبيين، دت، صفحة 30، 49، 50).

لقد تأسّى الجاحظ في المصطلحين بما جاء في القرآن الكريم، فقد ورد هذا المصطلح في قوله تعالى:﴿ **الرَّحْمَنُ (1) عَلَّمَ الْقُرْآنَ (2) خَلَقَ الْإِنْسَانَ (3) عَلَّمَهُ الْبَيَانَ**﴾(سورة الرحمن: 2،1، 3،

4) ، يعني علّمه القرآن الذي فيه بيان كلّ شيء، وقيل الإنسان ههنا آدم عليه السلام، وعلّمه البيان جعله مميّزاً حتى انفصل الإنسان من جميع الحيوان (الزجاج، 2006، صفحة 94)، ولعله هذا البيان هو الذي يربط الصلة بين أفراد المجتمع لتحقيق التواصل والتفاهم، ومن دونهما يصبح الإنسان لا قيمة له في مجتمعه.

وأمّا التبيين فقد ذكر في قوله تعالى:﴿ **وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ** ﴾(سورة النحل:89).

والتبيان اسم في معنى البيان (ابن منظور، 1993، بين)، مثلما ورد العنوان مطابقاً لما جاء في القرآن الكريم، لأنه تبيان وتبيين لكل شيء أراد معالجته، فكذلك نزل على محمد ρ حبيبًا لكل شيء.

يسعى الجاحظ من خلال هذا المؤلف إلى إشراك المتلقي فيما ينتج، أي أنّه يجعل المتلقي في مستوى المبدع، وأخالَ أنّ هناك علاقة تفاعل بين المصطلحين المبيِّن والمبيَّن، وهذا بغية إشراك المتلقي في العملية الإبداعية.

«والتّبيان: اسم في معنى البيان، مثل التبيان، التلقاء، ولو قرِئت وتبياناً، على وزن تفعال لكان وجهاً» (الزجاج، 2006، صفحة 161)، لأنّ التبيان في معنى التبيين وذلك في قوله تعالى:﴿ **وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ** ﴾(سورة النّحل:89)..

وتناول في مؤلفه مسألة العيّ في اللسان في قوله تعالى:﴿**وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِنْ لِسَانِي يَفْقَهُوا قَوْلِي**﴾(سورة طه:28) ،كانت بلسان موسى رُتّه (الفراء، دت، الصفحات 95-96) هذا العيب حال بينه وبين عدوه فرعون، لذلك استعان بأخيه هارون، لأنه أفصح لساناً، لقد توسّع الجاحظ في سرد الدّلالات والمصطلحات التي تدل على العيوب الحاصلة في اللسان، فذكر على سبيل المثال: (اللجلاج* (إبراهيم، دت، صفحة 816) ، والتمتام** ، والألثغ***) (إبراهيم، دت، صفحة 88)، وهي من عيوب الكلام ك: الخَنَب والتَغتغة والتمتمة واللكنة والعجمة والكحلة.

*اللجلاج: يتردد في كلامه ولا يبين.

**والتمتام: ردة التاء والميم.

وكلّ مصطلح من هذه المصطلحات الصوتية تعبّر بصدق عن عيوب تصيب الإنسان فتغيّر لغته من السلامة والفصاحة إلى التشويه، والعمل الذي قام به الجاحظ يعدّ من الأمور المستجدة في الوظيفة التي يضطلع بها المصطلح، فللمصطلح وظيفة محددة، وهو ما حدى بالجاحظ ليعدد هذه المصطلحات. لقد فصل القول في الحروف التي تدخلها اللثغة، إذا حددها في أربعة، هي: القاف التي تلفظ (طاء) والسين التي تلفظ ثاءً واللام التي تلفظ باء وكاف والراء التي تلفظ ياء أو غاءً أو ذالا أو ظاء.

ووضح أن اللثغة تمنع الفرد من الفصاحة وتحول الحياة إلى معاناة من العي والحصر، ومن صعوبة في النطق وافتقار للبيان، ويمكن أن يرتبك كلما دعته الضرورة إلى الكلام أمام أفراد المجتمع**** (إبراهيم، دت، صفحة 88).

(والبيان) وهو أهم أبواب كتابه، وكان عنواناً لمؤلفه، أورد له مجموعة من المفاهيم المختلفة، فقال: «البيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجاب دون الضمير حتى يفضي السامع إلى حقيقته ويهجم على محصوله كائناً ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان الدليل، لأن مدار الأمر والغاية التي يجري القائل والسّامع، إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان في ذلك الموضع» (الجاحظ، البيان والتبيين، دت، صفحة 55).

«والبيان هو إظهار المقصود بأبلغ لفظ وهو من الفهم وذكاء القلب مع اللّسن، وأصله الكشف والظهور» (ابن منظور، 1993، صفحة 365)، فالبيان في عرف الجاحظ هو الفهم وبلوغ الإفهام وكشف المعنى، وهو ما يشاطره الرأي ابن منظور في اللسان من أنّ البيان إظهار المقصود (الغاية عند الجاحظ) بأبلغ لفظ، واللفظ تشخيص للصورة الذهنية وقد عدد أصناف الدّلالات على المعاني، قائلاً:«وجميع أصناف الدّلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ، خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد: أولها اللفظ، ثم الإشارة ثم العقد، ثم الخطّ، ثمّ الحال التي تسمّى النّصبة» (ابن منظور، 1993، صفحة 56).

***الألثغ تحول اللسان إلى حرف غيره نحو السين ثاء أو الراء غيناً.

****كلمته إلى حنكه.

وبعد أن فصل القول في الأصناف الخمْسة السالف ذكرها، انتهى به الحديث إلى أنّ حسن الكلام ما كان قليله يغنيك عن كثيره ومعناه ظاهر في لفظه(...) فإذ كان المعنى شريفاً، واللفظ بليغاً، وكان صحيح الطبع بعيداً عن الاستكراه(...) صنع في القلوب صنع الغيث في التربة الكريمة (ابن منظور، 1993، صفحة 61).

ويعدّ الجاحظ أوّل من وضع أسس علم البيان، وأنّه أوّل من بيّن أنواع البيان وفق تصوّر محدد تلاءم ورؤيته الفكرية، إذ قسم البيان إلى أربعة أصناف هي:

1- **البيان وطلاقة اللسان**: تستشف هذا الصنف من قول ρ «ما أعطى العبْدُ شرًّا في طلاقة اللسان» (ابن منظور، 1993، صفحة 564)، ويقدر ما كان العرب يحبّون البيان والطلاقة والبلاغة وحسن التخلص والرشاقة كرهوا السلاطة* والهذر** والتكلف*** والإسهاب ****، لما في ذلك من التزيد والمباهاة وإتباع الهوى والمنافسة في العلو (الجاحظ، البيان والتبيين، دت، صفحة 130).

يتبيّن لنا من ههنا أنّ العرب كانت تحند المبدع ذا اللسان أطلق، فتأسُ به وتنحاز إليه.

2- **البيان وحسن اختيار اللفظ**: يوضح الجاحظ مغزى هذا العنوان بقوله:«اعلم أنّ المعنى الحقير الفاسد، والدنيء الساقط يعشعش في القلب ثم يبيض ثم يفرخ،... وتمكن الجهل وقرح، وعند ذلك يقوى داؤه ويمتنع دواؤه، لأنّ اللفظ الهجينَ الرديء والمستكره الغبي أعلق باللسان وآلف بالسمع وأشد التحاماً بالقلب من اللفظ النبيه الشريف، والمعنى الرفيع الكريم...» (الجاحظ، البيان والتبيين، دت، صفحة 62).

* السلاطة: طوال اللسان، مصدر السليط من الرجال والنّساء...وذلك طال اللسان واشتدّ الصخب.

** الهذر: الكلام الذي لا يعبأ به.

*** التكلف: كثرة السؤال والبحث عن غوامض الأشياء، قال عمر τ "نُهينا عن التكلف"، أراد كثرة السؤال والبحث عن الأشياء الغامضة التي لا يجب البحث عنها.

**** الإسهاب: الإكثار من الكلام، قال الجعدي: غير عيي ولا سُهْبِ

في النص حرص الجاحظ عل ثنائية اللفظ والمعنى، ويرى في الجمال الفني إمكانية تحقيقه من خلال الصياغة التي تكسو المعاني بهاءً خاصاً... ويعود الفضل في رأيه إلى هذه الصياغة التي يتوخّى المبدع تحقيقها إذا ما أراد التعبير في نعمه عن معنى معيّن، وهمّ الجاحظ المتلقي لذلك قدّم الدوال على المدلولات، واتسام الدوال بالجودة ينتج عنه مدلولات جيدة، ولا يمكن اكتساب الألفاظ الجيدة إلا بالاختلاف إلى العلماء ومجالستهم ومدارسة كتبهم، والاحتكاك بأرباب البيان، ومن حرم هذا التوجه بقي بعيداً عن الارتقاء بالألفاظ إلى درجة البيان.

3- **البيان والكشف عن المعنى**: يبيّن الجاحظ كيف يفعل البيان فعلته في كشف المعاني فقال:«وعلى قدر وضوح الدلالة وصواب الإشارة وحسن الاختصار ودقة المدخل يكون إظهار المعنى» (الجاحظ، البيان والتبيين، دت، صفحة 55)، فالجاحظ واضح في نصه، إذ يدعو المبدع إلى توضيح الدلالة المراد تبليغها للمتلقي مع الإيجاز والدقة في التعبير، والتعبير- ههنا- فرض تجسيده في العملية التّواصلية بين أفراد المجتمع لقضاء الحاجات، وكأنّنا أمام تعريف ابن جني للغة القائل: «أما حدّها فإنّها أصوات يعبّر بها كل قوم عن أغراضهم» (ابن جني، 2016، صفحة 32).

4- **البيان والبلاغة**: فالبيان والبلاغة عند الجاحظ سيّان، والبيان عنده جامع لكل شيء وعن طريقه تتضح المعاني ولا يمكنُ«تشكله كبيان إلا إذا توفر على بنية أساسية هي البلاغية...» (طاهر مسعودي، قراءة جديدة للمصطلح في التراث النقدي العربي، 2008، صفحة 215)، والبليغ في نظر الجاحظ هو من يستطيع إزالة الحجاب عن غوامض الأفكار. ولا يكون المتكلم بليغا إلاّ إذا تمكن بما يحوزُ من بيان وبلاغة من توضيح المعاني للمتلقين على اختلاف طبقاتهم، شرط تحقيق الملائمة بين المعاني وأقدار المتلقين.

وإذا كان البيان هو المثل الأعلى والنموذج الأكبر، فهو لا ينال بالممارسة ولا يدرك بالتعليم، إنّه طبيعة خالصة وفطرة فطر عليها الخلق في إصابة القول الفصل على غير تلقين، فهو إذن كلام مستغنٍ عن المتكلم نفسه.

وأمّا التبيين فيشترك مع الأوّل في كونه تعبيراً، لكنه يختلف عنه، من حيث هو في متناول الجميع، يدرك بالعقل ويكتسب بالتمرين والممارسة، ومن ثمّ الاضطرار فيه إلى معلم يعلمه ومتكلم يوضحه ومتلق يقبله، والحاجة فيه إلى جميع أنواع المعالجات حاجة أكيد (بناني، 1989، صفحة 12).

وَمهما يكن من أمر فإنّ البيان والتبيين في هذا كله ما هو إلا كيفية من الجاحظ للتعبير عن فلسفته الكلاميّة الرّامية إلى التوفيق بين الدين والعقل.

3–أصناف الدلالات على المعاني: يقول الجاحظ بعد تعريفه للبيان، «بأنّه الدلالة الظاهرة على المعنى الخفيّ» (الجاحظ، البيان والتبيين، دت، صفحة 75) وجميع أصناف الدلالات على المعاني من لفظ وغير لفظ خمسة أشياء لا تنقص ولا تزيد: أولها اللفظ ثم الإشارة ثم العقد ثم الخط ثم الحال التي تسمّى النصبة.

أ– **اللفظ:** صورة ترتسم كصورة خيالية ذات دلالة، فترسم في النفس مقاصد هذه الدلالة (مجدي، دت، صفحة 22)، وعليه فاللفظ لا يظهر إلاّ من خلال الصوت، يقول الجاحظ:«وفهمك لمعاني كلام الناس ينقطع قبل انقطاع الصوت، وأبعد فهمك لصوت صاحبك ومعاملك، والمعان لك كان صياحاً صرفاً، وصوتاً مصمتاً ونداءً خالصاً...(فجعل اللفظ لأقرب الحاجات، والصوت لأنفس من ذلك قليلاً)» (الجاحظ، الحيوان، 1969، صفحة 481)والعرب القدماء جعلوا الألفاظ قروضا تلخص فكرة معينة أو صورة ذهنية تحمل مفاهيم ورؤى محددة، استعملوها في عملية تواصلهم مع غيرهم وتسمياتهم للأشياء، ومن ثمّ كان اللّفظ كياناً خاصاً به يحمل معنىً معيناً في سياق محدد، فكانت العلاقة القائمة بين اللفظ مُشكّلة لنظام معرفي بياني.

ب– **الإشارة:** تعريف الجاحظ: «وأما الإشارة فباليد والرأس وبالعين والحاجب والمنكب إذا تباعد الشخصان وبالثوب وبالسيف» (الجاحظ، البيان والتبيين، دت، صفحة 77)، (بناني، 1989، صفحة 82) والجاحظ أدرك أهمية هذه الوسيلة التعبيرية التي أصبحت علمًا قائماً ومستقلاً في عصرنا. وقوله: «إنّ الإشارة واللفظ شريكان ونعم العون هي له، ونعم الترجمان هي عنه، وما أكثر تنوب عن اللفظ وما تغني عن الخط» (الجاحظ، البيان والتبيين، دت، صفحة 182)، (بناني، 1989، صفحة 82) ، ويدخل في دلالتها الهيئة كالزي واللون والسلوك الحركي والتعبيري. وجعلت السيدة مريم صومها سكوتاً

عن الكلام ﴿ **إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَٰنِ صَوْمًا**﴾(سورة مريم:26) وقوله تعالى:﴿ **فَأَشَارَتْ إِلَيْهِ قَالُوا كَيْفَ نُكَلِّمُ مَن كَانَ فِي الْمَهْدِ صَبِيًّا**﴾(سورة مريم:29).

إنّ الجاحظ بهذا التعريف يؤكد- بلا ريب- دلالة فطنته لطبيعة الإشارة ووظيفتها الواضحة في تأدية الكلام، وهو ما يؤكده الواقع من الإشارة ذات صور معلومة على اختلاف في طبقاتها ودلالتها، وأنها تستعمل في أمور شتى يخفيها بعض النّاس عن بعض، وهي منتشرة في مجتمعنا اليوم، ويوازي بينها وبين الصوت فيقول:« إن مبلغ الإشارة أبعد من أبلغ لصوت» (بناني، 1989، صفحة 79)، فهذه الإشارة لا تعتمد على الصوت كاللفظ ولا على الحبر كالخط، ولكن هي عبارة عن حركة مختصرة، كرفع السيف وتحريك الحاجبين، هي إذن تشكل علامة واحدة، فهي أدخل في باب الرمز منه في باب الكلام، ولذلك قال عنها إنّها عون وترجمان، أي أنّ الإشارة ضرورة أن تنقل المشار إليه نقلاً أميناً، أورد الجاحظ جزءً كشاهد.

تـرى عينُهـا عينـي فيعـرف وحيهـا * وتعـــرف عينـــي مـــا بـــه يرجـــع**

وقوله:

وللقلـــــب علـــــى القلـــــب * دليـــــــل حـــــين يلقـــــاه**[*]

<u>ج–العقد</u>: التعريف اللّغوي نلتمسه في لسان العرب.«عقد العقد: نقيض الحل، والعقد: ما عقدت من البناء، والجمع أعقاد وعقود، وعقد: بنى عقداً» (ابن منظور، 1993)ودلالته الحساب، قال تعالى:﴿ **فَالِقُ الْإِصْبَاحِ وَجَعَلَ اللَّيْلَ سَكَنًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ حُسْبَانًا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ** ﴾(سورة الأنعام: 96). والحساب يشتمل على معانٍ عدّة ومنافعَ جليلة، ولولا معرفة العباد لمعنى الحساب ما فهموا مراد الله تعالى (الجاحظ، البيان والتبيين، دت، صفحة 80)، (مجدي، دت، صفحة 33). وعرفه الجاحظ بقوله:«هو الحساب دون اللفظ والخط» (الجاحظ، البيان والتبيين، دت، صفحة 80)، والعقد

[*] من خلال الأشعار والأخبار التي يسوقها بها العبارة اللائقة التي يتصيّدها ويرسلها لتأييد أفكاره.

سواءً أكان عملية حسابية يدوية أم رموزاً جبرية أو خطوطاً هندسية، يبقى الحساب وسيلة من وسائل التبليغ المختلفة التي أرسى الإنسان أصولها للتعبير عن معانيه والاتصال ببني جنسه.

وعليه فالجاحظ كان يدرك إدراكاً عميقاً أن العقد نظام من الأنظمة الدلالية، كالحديث والخط والإملاء وغيرها، وأهميته في الحياة– ولا شكّ– جليلة للإنسان.

د–الخط: هو «تصوير بحروف هجائية» (الجرجاني، 2007، صفحة 166)، ويقصد به الجاحظ التعبير عمّا في النفس بواسطة الحروف المكتوبة، وعليه فالخط يختلف عن اللفظ بكونه يعتمد على الحبر، أو ما يقوم مقامه (الجاحظ، الحيوان، 1969، صفحة 70)، فالخط أحد أنواع الدلالات اللسانية وظيفته تسجيل الكلام والمحافظة عليه لوقايته من النسيان (الجاحظ، الحيوان، 1969، صفحة 62). ولذلك جعل الإنسان الخط دليلاً على ما غاب من حوائجه عنه وسبباً موصلاً للأعوان، «وجعله خازناً لها لا يأمن من نسيانه ممّا قد أحصاه وحفظه وأتقنه وجمعه وتكلف الإحاطة به» (الجاحظ، الحيوان، 1969، صفحة 46).

وعليه فالخط هو أداة للتعبير عمّا في النّفس، وهي أوصاف يسوقها الجاحظ عندما يتناول الكلام عن الخط.

هـ–النصبة: قال الجاحظ: «وأمّا النصبة فهي الحال الناطقة بغير اللفظ والمشيرة بغير اليد» (بناني، 1989، صفحة 77)، وقد شرح ذلك وبينه بقوله:«وذلك ظاهر في خلق السموات والأرض وفي كل صامت وناطق وجامد ونامٍ ومقيم وضاعن وزائد وناقص» (الجاحظ، البيان والتبيين، دت، صفحة 81)، (بناني، 1989، صفحة 77). وعليه تبقى الدلالة التي في الموات الجامد كالدلالة التي في الحيوان الناطق. فالصامت ناطق من جهة الدلالة، والعجماء معربة من جهة البرهان (بناني، 1989، صفحة 81)، (الجاحظ، البيان والتبيين، دت، صفحة 77).

ويستنتج ممّا سبق أنّ النصبة ليست سوى المعنى، وهي وإن كانت نوعاً من الدلالات إلا أنّها لا تختلف عن غيرها في كونها لا تتركب من وجهين دال ومدلول، «فهي معنى بدون لفظ وجسم بدون روح» (بناني، 1989، صفحة 81)، (الجاحظ، البيان والتبيين، دت، صفحة 77).

والخطيب الذي قام على سرير الاسكندر، وهو ميّت كان يعلم ذلك عندما قال: «الاسكندر كان أمس أنطق منه اليوم وهو اليوم أوعظ منه أمس» (الجاحظ، البيان والتبيين، دت، صفحة 81).

وهكذا تصبح النصبة هي السموات والأرض أو الأبدان قبل أن ينفخ فيها الروح أو هي الخلق الذي لم يخلقها الله تعالى سدًى.

وهكذا فالنّصبة عند الجاحظ هي الكائنات الحيّة التي تعمر الكونَ وتملأ الفضاء (طاهر مسعودي، قراءة جديدة للمصطلح في التراث النقدي العربي، 2008، صفحة 230)، فهي عنده الدلالة الكونيّة الناطقة بوجود الخالق.

ومن يدقق النظر في مصطلح النّصبة يدرك أنّها تدعو إلى إعمال الفكر في تدبر الأشياء تدبراً ذاتياً، إذ تعبر عن معنى محدود ولا تنطق به.

يقول الجاحظ في هذا السياق «ومتى دلّ الشيء عن معنًى فقد أجيز عنه وإن كان صامتاً، وأشار إليه وإن كان ساكناً» (الجاحظ، البيان والتبيين، دت، صفحة 76)، (بناني، 1989، صفحة 78)، فهي إشارة تأصيلية أكثر منها واقعيّة.

إنّ الجاحظ قد أكسبته التجارب معارف مميزة ومواقف مكنته من تصويبها وتسجيل وقائعها، لقد أبدع في مجالات شتى، لذلك جاءت مؤلفاته موسوعة تجلت فيها سعة علمه وثقافته وغزارة قراءاته وتعددها حتى عدّ أديب العالم العربي قاطبة.

قائمة المصادر والمراجع:

1) إبراهيم أنيس وآخرون، (دت)، المعجم الوسيط، مجمع اللغة العربية، القاهرة.

2) بناني محمد الصغير ، (1989)، النظريات اللسانية والبلاغية والأدبية عند الجاحظ من خلال "البيان والتبيين"، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.

3) الجاحظ، (1969)، الحيوان، تح: عبد السلام، منشورات المجمع العلمي العربي الإسلامي، بيروت.

4) الجاحظ، (دت)، البيان والتبيين، تح: عبد السلام هارون،دار الفكر، بيروت.

5) الجرجاني الشريف ، (2007)، التعريفات، ط1، شركة القدس للتصدير، القاهرة.

6) ابن جني، أبو الفتح عثمان، (2016)، الخصائص، تح: محمد علي النجار، دار الكتب المصرية، القاهرة.

7) دراقي زبير ، (دت)، محاضرات في فقه اللغة، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر.

8) الزجاج، (2006)،تهذيب معاني القرآن وإعرابه، ط1، المكتبة المصرية، صيدا.

9) الزمخشري محمود،(1998)، أساس البلاغة، تحقيق: محمود باسل عيون السد، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

10) السيوطي، (1987)، المزهر في علوم اللغة وأنواعها، المكتبة المصرية، صيدا، بيروت.

11) الصالح صبحي إبراهيم، (1379هـ-1960م)، دراسات في فقه اللغة ، ط1، دار العلم للملايين، بيروت .

12) طاهر مسعودي حبيبة، (2008)، قراءة جديدة للمصطلح في التراث النقدي العربي، ط1، مكتبة وهبة.

13) طاهر مسعودي حبيبة ،(دت) إشكالية المصطلح في الفكر العربي المعاصر، محمد محفوظ من خلال قراءة الجديدة للمصطلح في التراث النقدي العربي، مكتبة وهبة، القاهرة.

14) الفراء، (دت)، معاني القرآن، منشورات بيضون، دار الكتب العلمية، بيروت، لبنان.

15) مجدي إبراهيم، (دت)، بحوث في علم الدلالة بين القدماء والمحدثين، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة.

16) مجلة اللسان العربي، (2007)، مكتب تنسيق التعريب، الرباط، العدد60/ديسمبر.

17) ابن منظور، (1993)، لسان العرب، ط3، دار إحياء التراث العربي،بيروت، لبنان.

18) النادري محمد أسعد، (دت)، فقه اللغة مناهله ومسائله، المكتبة العصرية، صيدا، بيروت.